نَسِيبَة وبَيْعَة العَقَبَة

هذه أم عمارة، لم يرتفع بها نسبها الرفيع لتصبح واحدة من الشهيرات، ولم تكن لتبلغ هذه المنزلة التي بلغتها لو لم تدخل في الإِسلام.

لقد كانت مثلاً للنساء وهي تخطو نحو الإِسلام طائعة مختارة، لا خوفاً ولا طمعاً، وإنما لأنه الحق، ولأنه شرع الله، ولأنه نداء الفطرة التي تهتدي، وتلبي طائعة صادقة.

وسنترك الأحداث تروي لنا جوانب من شخصيتها لتكون ناطقة شاخصة أمامنا، ولتكون معلماً أمام نسائنا.

ولنبدأ في خطواتها نحو الإِسلام.

يقول كعب بن مالك ـ وهو ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ ـ يصف لنا ذلك الحدث العظيم:

«ثم خرجْنا إلى الحج، وواعدْنا رسولَ الله ﷺ

العقبةَ من أوسط أيام التشريق، فلمّا فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعَدْنَا رسولَ الله ﷺ لها، ومعنا عبدُ الله بنُ عَمْرو بن حرام ـ أبو جابر ـ سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم مَنْ معنا مِنْ قومنا من المشركين أَمْرَنا، فكلَّمْناه وقُلنا له: يا أبا جابر، إنك سيدٌ من ساداتنا، وشريفٌ من أشرافنا، وإنا نرغب بك عمَّا أنت فيه أن تكونَ حطباً للنار غداً، ثم دَعَوْناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة؛ قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً.

قال: فنِمْنا تلكَ الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلثُ الليل خرجْنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلَّل تَسَلُّلَ القَطَا، مُسْتَخْفين حتى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب ـ أم عمارة ـ إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع. فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ـ وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثَّق

له ـ فلما جلس كان أولَ مُتكلِّم العباسُ بن عبد المطلب فقال:

يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها ـ: إن محمداً منا حيث قد عِلِمْتُمْ، وقد منعْناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍ من قومه، ومَنَعَةٍ في بلده، وإنه قد أبى إلاّ الانحيازَ إليكم، واللحوقَ بكم، فإنْ كُنتم ترون أنكم وَافُون بما دعوْتموه إليه، ومانعوه مِمَّنْ خالفه، فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلِّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عِزةٍ ومَنعةٍ من قومه وبلده.

قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلْتَ، فتكلَّمْ يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، ثم قال:

«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (نساءنا)،

فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب، وأهل الحلقة (السلاح» ورثناها كابراً عن كابر.

قال: فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ﷺ ـ أبو الهيثم بن التيهان، فقال:

يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها (ويعني بذلك اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال:

«بل الدم الدم، والهدم الهدم[1] أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم».

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

---

(١) قال ابن قتيبة: كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دمك، وهدمي هدمك: أي ما هدمت من الدماء هدمته أنا.

وقال ابن هشام: الهدم الهدم: أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم.

فقال رسول الله ﷺ: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي».

قالوا: نعم.

وعن عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف:

يا معشر الخزرج: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم.

قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً، أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة.

وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟

قال: «الجنة!!.

قالوا: ابسط يدك.

فبسط يده.... فبايعوه»[1].

هذه لمحات من بيعة العقبة التي كانت أساساً لبناء الدولة الإسلامية وانتقال الدعوة من مرحلة إلى مرحلة.

وجدير بنا أن نتوقف عند بعض نقاطها لنرى دور المرأة فيها، من خلال هذه الدراسة لنسيبة، لنستطيع استخلاص الصورة الحقيقية التي كانت عليها المرأة المسلمة في ذلك العهد المشرق.

١ ـ إن من يتتبع مسيرة الدعوة الإسلامية لا بد له أن يرى تلك الشدة القاسية التي مرّ بها المسلمون الأولون في مكة. كان العداء الجاهلي للإسلام قد بلغ حداً عنيفاً، وأضحت الدعوة في حصار شديد، وقريش تزداد حقداً وعداءً وعنفاً، وتحاول أن تسد جميع الطرق أمام

---

(١) انظر بيعة العقبة الثانية في طبقات ابن سعد (١ ـ ٣٢١) والطبري (٢ ـ ٣٦١) وسيرة ابن هشام (٢ ـ ٤٧). وتاريخ الإسلام للذهبي (٢ ـ ٢٠٠) ـ والبداية والنهاية (٣ ـ ١٥٠) والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر (٦٨). ودلائل النبوة للبيهقي (٢ ـ ٤٤٢).

المسلمين حتى لا يتصلوا بأحد من الناس، أو يعرضوا الدعوة على أي قبيلة أخرى. والأنصار حين أراد الله بهم خيراً، حصل ذلك اللقاء المبارك بين رسول الله ﷺ وبين وفد الأنصار، حيث قبلوا الدين الجديد، وعادوا إلى المدينة يعرضون الأمر على قومهم، ويدعونهم لقبول الإسلام والدخول فيه، وكان مصعب بن عمير رسولاً لرسول الله ﷺ يعلمهم أمور الدين، وينظم أمور الدعوة في المدينة، ويتابع مسيرتها في أحياء الأوس والخزرج.

وكان الوفد الذي واعد رسول الله ﷺ في العقبة يمثل الأنصار في المدينة، ويدل على وعيهم الواضح وهم يدخلون في الدين الجديد، ويحملون راية الإسلام بين قومهم وفي أحياء العرب.

لقد كانوا على بيِّنة لما يدور في الجزيرة العربية، وما يحيط بالدعوة والدعاة من عداء وأعداء، ويعرفون أن رسول الله ﷺ محاط بالمشركين المعاندين في مكة، واليهود المتربصين في المدينة، والأحياء المترقبة في أنحاء الجزيرة، وهم يكيدون أشد الكيد للمسلمين.

والذين جاؤوا يمثلون صورة الدعاة يدركون كل هذا، ولا يبتغون غير مرضاة الله عز وجل في ما أقدموا عليه.

٢ ـ لقد اختار رسول الله ﷺ موسم الحج حيث يجتمع كل الناس في مكة، وتلتقي الجماعات من قبائل شتى، يجمعهم هذا الموسم، وإن كان لكل واحد هدف وغاية، والأنصار جاؤوا مع قومهم، لا يعلم بمرادهم إلا الله ـ عز وجل ـ وكان يبدو في ظاهر الأمر أنهم قدموا بين قومهم لحضور هذا الموسم، ولكن حقيقة الأمر أن أمر الدعوة هو الذي دفعهم للمجيء في هذه السنة.

وحري بالدعاة إلى الله استقراء هذه الحادثة، وإدراك هذه اللفتة المهمة في اختيار المناسبات التي تصلح لتحقيق غرض كريم من أغراض دعوتهم، واستغلال هذه الظروف لتكون إطاراً يخفي حركة الدعوة ويؤمن تحقيق الهدف المطلوب، ويفوِّت على الأعداء مكائدهم.

لقد جاء الأنصار تربط بين قلوبهم رابطة الإيمان ـ التي هي أقوى رابطة وأوثق وشيجة ـ.

وفي دِقَّة بالغة، وسرِّية تامة، كانت تجري بينهم الاتصالات وتدور الأحاديث، وهم يستطلعون الأجواء التي تحيطهم حتى تواعدوا مع رسول الله ﷺ في العقبة من أوسط أيام التشريق.

وحين كان الناس، كلٌّ يمضي لهدفة، ويقضون لياليهم بالسَّمَر، ونهارهم بالتجارة أو أمور الحج، أو في التفاخر وسماع الشعر، حينها كان أولئك المسلمون يرتِّبون أمورهم حتى يتم اللقاء.

وحين نتصور هذا اللقاء الذي اجتمع فيه ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان، نعرف دقة الجهد والإعداد، وأهمية اللقاء وخطورته، ولا سيما إذا عرفنا الجو الذي كانت تعيش فيه مكة، والترقب والتتبع الذي كانت تقوم به قريش لمحمد ﷺ، لتفسد عليه الأمر، وتؤلب عليه الناس، وعلى رأس هؤلاء عمه أبو لهب. وأبو جهل بن هشام.

ورغم هذا فقد استطاع رسول الله ﷺ أن يقيم هذه الصلة الوثيقة الدقيقة، ويحقق هذا اللقاء المنظم مع مسلمين المدينة، وأن يبقى على صلة دائمة مع مصعب بن عمير وعمله في المدينة.

قد كان الأمر في غاية الدقة والوعي، حيث نهض هؤلاء من بين الناس، وتركوا خيامهم دون جلبة أو ضوضاء، وتسلَّلوا مُسْتَخْفين حذرين، تسلُّلَ القطا إلى موعدهم مع رسول الله ﷺ.

لم يوقظ أحد منهم أحداً حتى لا يثير ضجة، ولا ينبه القوم إلى هذا العمل، بل كان كل واحد منهم قد بلغ حداً من الاهتمام بأمر دعوته يجعله يستيقظ في الوقت المناسب، ولا يمنعه مانع عن هذا الواجب.

إن أمر الإيمان في نفوسهم بلغ حد اليقظة الحقيقية، اليقظة التي تمنعه من الركون إلى الراحة، والاستغراق في النوم، والخلود إلى الأرض، فالمسؤولية عظيمة، والأمانة كبيرة، والجنة محفوفة بالمكاره. وتحقيق الغاية يحتاج إلى هذه الدقة، وهذه السرية.

والتقوا في العقبة عند منتصف الليل، ومعهم نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي.

٣ ـ وعلينا أن نتوقف عند حضور هاتين المرأتين في البيعة، لأن الأمر آنذاك كان تَحوُّلاً عظيماً، وتقريراً خطيراً لمستقبل الناس هناك، ومسيرة الدعوة في المستقبل.

كان الأمر في غاية الدقة والحذر والجد والخطورة، تمَّ بعد إعداد مسبق وتخطيط مدروس، واستطلاع واعٍ لمعرفة المكان والزمان والوسيلة لتحقيق الهدف.

والنصوص التاريخية لا تنبئنا عن سبب لهذا الحضور، ولا توضح لنا: هل كان ذلك بتوصية من رسول الله ﷺ أم بدافع من المرأتين، وأياً كان، فقد حضرت المرأتان البيعة، ووافق رسول الله ﷺ على ذلك. وهذا يكفي للدلالة على أهمية المرأة ومسؤوليتها، والأمور المنوطة بها في مسيرة الدعوة.

ومع هذا فإن النتيجة واحدة لأن هذا يدل على اهتمام النساء ـ وهنّ في المدينة ـ بأمر الدعوة وانتشارها، وتخطّيها لظروفها الصعبة التي كانت تحيطها.

ولم يكن أمر الدعوة مقصوراً على الرجال وحدهم، ولم يكن من واجب الرجال وحدهم، بل كان النساء يشعرن أنهن مسؤولات عن هذه الدعوة ومحاسبات على ذلك.

وكما رأينا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ تقف مع رسول الله ﷺ في أول الدعوة تشد أزره، وتبشره بالخير، وتقف إلى جانبه بأموالها ونفسها، وتحمل معه هموم الدعوة.

فكذلك نرى هنا النسوة يحتذين بخديجة ـ رضوان الله عليهن ـ، فيتابعن مسيرة الدعوة في المدينة،

ويصغين إلى كل ما يدور في الداخل من أحاديث وأخبار، ويشتركن في هذه الخطوة المباركة.

والأمر إذن يشير إلى أهمية المرأة التي عليها أن تسهم في نشر الدعوة بالقدر الذي خلقت له، وتهيأت بالفطرة لمزاولته، لم تأخذ مكان الرجل، ولم يأخذ الرجل مكانها، ولكنها أيضاً لم تتخل عن واجبها وتقعد دون هذه المسؤولية.

وحضور نسيبة وأختها من الأنصار كان دلالة على هذه المسؤولية في حمل الأمانة والقيام بالواجب، ولا سيما أنها المسؤولة الأولى عن تربية النشء على العقيدة، وغرس روح الجهاد في نفوس الأبناء، وحفظ المجتمع ودفعه لقبول الدين الجديد.

أولا تقدر على هذا العبء امرأة لا تعرف من دينها إلا ألفاظاً وحركات. ولا تستطيع هذا الأمر امرأة لم يبلغ الإيمان عندها حداً يوقظ اهتمامها بدينها ويدفعها للقيام بواجبها بعد فهمها لدينها.

ألم يكن وفد الأنصار هذا ـ ومعهم نسيبة ـ على وعي بما يحيط الدعوة والدعاة من عداء وأعداء؟

ألم يعلموا أن رسول الله ﷺ، مُحاط بالمشركين

المعاندين، واليهود الحاقدين الذين يتربصون به وبالدعوة الدوائر؟

نعم كان الوفد يمثل صورة الدعاة الذين يدركون كل هذا، ولا يبتغون إلا مرضاة ربهم عز وجل.

ونسيبة هنا تؤكد ذلك، وتضع معلماً مهماً أمام المرأة المسلمة، إذ لا شيء في هذه الدنيا أهم من عقيدة الإنسان، ولا عاطفة تعلو على عاطفة الحب لله ولرسوله، والولاء لله عز وجل.

ولهذا فقد جاءت نسيبة لتحضر البيعة وتبايع رسول الله ﷺ كما بايعه الرجال تأكيداً على أهمية المرأة، ومسؤوليتها في دعوة الله عز وجل. وليس خافياً ما كان يحيط تلك البيعة من أخطار، فلو علمت قريش بالأمر لهان عليها أن تقضي على هذه العصبة المؤمنة، ولو كلفها ذلك حرب الأوس والخزرج، والقضاء على أهل البيعة، لأن الخطر الذي يحدق بها بعد تمام البيعة أكبر بكثير من الخطر الذي تواجهه من محاربة هؤلاء الآن.

ولقد كانت إرادة الله تقضي بانتصار المؤمنين وظهور دعوة الله بعد أن صدقوا في إسلامهم، وضحوا

في سبيل عقيدتهم، وأعدوا كل ما يستطيعون لنصرة دينهم.

وحين خرجت نسيبة مُستخفية لحضور البيعة، كانت تدرك أهمية الدعوة وسلامتها، وطبيعة حركتها، وسبيل العمل من أجل نصرتها.

لقد سمعتْ ما قاله العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ عن البيعة وتبعتها وما تعنيه من عداء لكل العرب، ومحاربة للناس الذين ما زالوا على جاهليتهم جميعاً.

كانت تسمع رسول الله ﷺ وهو يتلو آيات الله المنزلة ويرغِّب الأنصار في الإسلام، ويبين لهم حقائق الحياة كما أوحاها الله رب العالمين، ثم أوضح لهم البيعة: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». والعربي لم يكن يرى شيئاً أعز عليه من نسائه وأولاده، ولا يدافع عن شيء قدر دفاعه عن عرضه وولده، وعلى هذا بايعه الأنصار.

ثم رأت ما سأل عنه أبو الهيثم بن التيهان، وما أجاب به رسول الله ﷺ حيث وضح للأنصار ما تعنيه البيعة، والتزامه معهم ولبلدهم إلى آخر العمر.

بايعت نسيبة بعد هذا الوعي، وبعد هذا اليقين، وبعد هذا الإدراك لمدلولات الإيمان، وتبعات البيعة.

وتخلّت عن الجاهلية كلها، وأضحت مسلمة لله طائعة، واستعدت لأن تقوم بمهمتها في سبيل هذه الدعوة.

٤ ـ ولا شك ـ أيضاً ـ بأن نسيبة حين جاءت لتحضر البيعة كانت تعرف نصوص البيعة الأولى التي جرت بين عدد من الأنصار ورسول الله ﷺ، ورواها عبادة بن الصامت قبل سنة من هذه البيعة ـ وسميت بيعة النساء ـ حيث قال:

بايعنا رسول الله ﷺ على:

ـ أن لا نشرك بالله شيئاً.

ـ ولا نسرق.

ـ ولا نزني.

ـ ولا نقتل أولادنا.

ـ ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا.

ـ ولا نعصيه في معروف.

ـ والسمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكر وأثرة علينا.

ـ وأن لا ننازع الأمر أهله.

وأن نقول الحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم.

قال عليه الصلاة والسلام: «فإن وفيتم فلكم الجنة ومن غشَّ عن ذلك شيئاً كان أمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه»[1].

وواضح من البيعة الأولى أنها تعني الدخول في الإسلام من حيث العقيدة والتصور والسلوك، ونزع العبودية لغير الله، وعدم الشرك في أية صورة من صور الاعتقاد أو السلوك، ثم رد الأمر كله لله ـ عز وجل ـ ولكنه لم يترتب على البيعة دفاع أو جهاد أو تضحيات، أو إيواء أو نُصرة.

كان هذا النص نبذاً للجاهلية في السلوك اليومي، والاعتقاد الفكري، والواقع العملي.

وكما يقول الشيخ أبو زهرة ـ رحمه الله ـ عن ذلك: «فقد كانت البيعة بياناً للشرع الإسلامي في

---

(١) أخرجه البخاري مختصراً، والإمام أحمد بإسناد حسن.

العلاقات الاجتماعية والأسرية وأخذ العهد عليهم أن يقوموا بحقها، وهي جزء من الإسلام على عقيدة التوحيد».

وكذلك كانت: «لبيان بعض التكليفات الإسلامية التي لا اختلاف فيها، وما كانت للإيواء والنصرة، لأن النبي ﷺ لم يكن قد قرر الهجرة إليهم، ولم يكن قد جاءه الأمر بذلك أو الإيحاء به، ولأنه لا يأخذ بعهد النصرة قبل عهد الإيمان، فما كان عهدهم عهد جوار، ولكن عهد تأييد، ومحاربة دون الإسلام، ولا تكون إلا بعد توثيق كلمة الإيمان وحقها».

«وقد سمى كثيرون من كُتَّاب السيرة هذه البيعة بيعة النساء، وما كانت هذه التسمية فيما نحسب في وقت البيعة إنما كانت بعد ذلك لمشابهتها لما ذكره القرآن الكريم من مبايعة النبي ﷺ للنساء في أحكامها، وإن اختلف وقتها، واختلف موضوعها، فتلك كانت مع النساء، أما هذه فكانت مع الرجال وهي للرجال والنساء على سواء».

يقول الله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ

وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1] [الممتحنة: ١٢].

وهذه البيعة ـ كما نرى ـ تتضمن أموراً مهمة للرجال والنساء ـ على السواء ـ وإنما سميت بيعة النساء لأنها كانت قبل الإذن بالقتال وتشريع الجهاد، ولأن النساء لم يفرض عليهن الجهاد بالسيف وقتال المشركين.

ونصوص البيعة توضح الصورة التي أرادها الله لعباده المسلمين، ولمجتمعهم الإسلامي بشكل عام وللمرأة المسلمة بشكل خاص.

فهي أولاً تثبت صورة العقيدة القائمة على التوحيد الخالص وعدم الشرك بأية صورة أو لون من حجر أو شجر أو بشر، أو سلطة أو قانون. فالولاء لله، والطاعة والعبادة والالتجاء إلى الله ـ عز وجل ـ وهذا أمر الإسلام كله، لا يُقْبَلُ إسلام بدونه، ولا يعذر أحد في شركه، ولا يستقيم إيمان مع التهاون فيه.

وبعدها يلتزم المسلم المؤمن بالله، المعتقد بألوهية الخالق وربوبيته ووحدانيته وصفاته، يلتزم بشرع الله، ويتأدب بأدب الإسلام.

---

(١) خاتم النبيين (١ ـ ٦٣٠).

والمرأة تتبع للجانب النفسي والاجتماعي أكثر من جوانب الحرب أو السياسة، أو الدعوة بشكل عام، ولهذا لا بد من الالتزام بهذه الآداب والوقوف على هذه الحدود.

لا تسرق، ولا تزني: فهي بذلك تصون بيتها ومجتمعها وشرفها، وتحافظ على نقاء النسب ونظافة المجتمع، وسلامة البيت. فهي تمثل السياج الاجتماعي الذي يحمي المجتمع من أمراض الجاهلية وأخطارها.

إنها تغرس هذا في نفسها وفي الجيل الذي تربيه وتوجهه. إنها حارسة تشعر بمراقبة الله عليها، لذا تلتزم بالأمانة والعفة والشرف. الأمانة في البيت ـ بيت زوجها ـ وكذلك الأمانة في المجتمع كله، فلا تسرق شيئاً ليس لها، فتظلم مهما كانت طبيعة المسروق وحاجتها إليه، وربما يتعدى الأمر إلى المعنويات إضافة للمادة.

وكذلك تصون عفتها فتضمن لزوجها طمأنينة وسلامة ونظافة، لا يستطيع غيرها أن يضمنه، ورقيبها في ذلك رب العالمين. وتضمن للمجتمع الجو الصحي النظيف الذي تترعرع فيه الدعوة.

وكذلك لا تقتل الولد لفقر أو حاجة، أو لضيق وخوف، أو لأي سبب من الأسباب، كما يفعل

الجاهليون ـ قديماً وحديثاً، يقتلون الولد ـ أحياناً ـ تخلصاً من العار، ودفناً للجريمة، وكذلك يقتلون الولد ـ معنوياً ـ في إفساده وسوء تربيته وهكذا. . .

ثم تلتزم المرأة في هذه البيعة بعدم الإتيان ببهتان في أية صورة من الصور.

والبهتان أشكال وألوان، يكون في البيت ويكون في المجتمع، يكون مع الزوج، ويكون مع غيرها من النساء، ويكون من أجل مظهر كاذب، أو هدف تافه.

والمرأة تقع في ذلك كثيراً، إلا من عصم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولهذا فإن بيعة النساء عهد مع الله على الإيمان والاستقامة في ذات نفسها، وفي بيتها ومع ولدها، ومع أسرتها، ومع مجتمعها حتى تكسب رضاء الله عز وجل.

والسمع والطاعة لله ولرسوله في المعروف. والمعروف هو كل أمر من أوامر الله ورسوله، وكل نهي من النواهي أيضاً، وهذه الطاعة ليست مؤقتة أو مرتبطة بزمن وحالة معينة، بل الطاعة لله ولرسوله في العسر واليسر، وفي ما يرضي وما يغضب النفس وإن كان يؤدي ذلك إلى تعب ومعاناة أو نجاح وربح.

وكذلك الالتزام بالجماعة وعدم الشذوذ والفتن ومنازعة أولي الأمر الذين يقومون على تطبيق شرع الله ودعوة الإسلام.

والتزام الصدق وقول الحق مهما كانت التبعات، وعدم الخوف إلا من الله عز وجل.

وبعد البيعة تدرك المرأة، كما قال رسول الله ﷺ، أن هذه المسؤولية لا تتبعها منافع ومغريات، وليس لها جزاء دنيوي، وإنما الجزاء عند الله، تنال مرضاة الله وتفوز بالجنة إن صدقت.

هكذا تدرك أن أقصى مطمح للمسلم أن ينال جنة الله ويفوز بالرضوان، وليس الدنيا مطمحاً، وليس المال غاية، وليس المنصب أو متع الدنيا هدفاً للمسلم.

وهذا أمر مهم أن يرتبط العمل بهذه الغاية، وأن تتمخض النية خالصة لله عز وجل، وأن يكون الجميع متآزرين لنصرة هذا الدين ونشر الدعوة الإسلامية.

لقد دعت نسيبة أمر هذه البيعة، ودخلت راضية مطمئنة في ذلك العهد، واستعدت لتطبيق كل ما ينبغي للمرأة المسلمة تطبيقه وهي تدخل في دين الله راضية مطمئنة.

وبعد سنة من هذه البيعة، ومجتمع المدينة يخوض في حديث الدين الجديد، وينقسم بين مؤيد ومعارض، والدعوة تنتشر، وعصبة الأنصار ـ ومعهم مصعب بن عمير ـ ينظمون أمورهم، وينقلون الإِسلام إلى قلوب الناس وبيوتهم حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا ودخل فيه الإِسلام.

وتدخل نسيبة في دين الله، وتدرك طبيعة المعركة التي تدور بين الدعاة والمشركين، وتدرك طبيعة هذا الدين، وحقيقة التصور الإِسلامي، فلا تجد لنفسها ولأي مسلم أو مسلمة عذراً في القعود عن نصرة هذا الدين أو القيام بما يمليه عليها إسلامها، لأن أمرها موصول بأمر السماء، وحسابها عند الله ـ ومسؤوليتها لا يعفيها منها عذر أو عقبات.

لقد كان وعيها لحقيقة الإِيمان الواضحة البسيطة وعياً عميقاً، وأدركت ما يحيط بالدعوة من أخطار، وتابعت مسيرة الدعوة في المدينة، وأخبارها في مكة، ولهذا ذهبت إلى العقبة لتحضر البيعة دلالة على هذا كله. وهي منذ اليوم الذي بايعت فيه رسول الله ﷺ ستحمل مسؤوليتها: زوجة مسلمة، وأما مسلمة، وداعية مسلمة، ومجاهدة مسلمة. وستشارك في كل المواقف

التي تحضرها، بما يقضي عليها واجب الإيمان والبيعة لله عز وجل.

٥ ـ وكان رسول الله ﷺ حين يبايع الرجال يصافحهم فرداً فرداً ولكنه لا يصافح النساء، إنما كان يأخذ عليهن، فإذا أقرَرْنَ قال: اذهبْنَ فقد بايعتكنّ.

وهذا أمر له دلالته. فلا تجوز مصافحة المرأة الأجنبية لأي سبب كان وليس أهم من هذا الموقف، وليس أدل على الإيمان والصدق والإخلاص من هذا الموقف، ومع هذا فكان رسول الله ﷺ، وهو المبعوث رحمة للعالمين، يأخذ على النساء أمور البيعة، فإذا رضين وأقررن قال لهن: اذهبن فقد بايعتكن. دون أن يكون لهذا الموقف المهم أثر في أمر المصافحة، لأنها من الأمور الشرعية التي لا مجال فيها للاجتهاد.

٦ ـ وكان ممن حضر البيعة زوجها زيد بن عاصم وابناها عبد الله وحبيب أبناء زيد، فكان هذا الحضور يمثل الأسرة المسلمة المجاهدة: الزوجان يخلعان الجاهلية ويمضيان في طريق الجهاد ثم يربيان أولادهما على هذا، ويسيران بهم على درب الجهاد، ويدفعان بهم إلى حمل الدعوة.

هكذا تكون المسؤولية، وهذا موقف الصدق في الإيمان والصدق في البيعة، وهذه هي الأسرة المسلمة التي تلتزم بدينها.